Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 34:3 (1999)

لغة العين في القرآن الكريم
دراسة بلاغية

كمال عبدالعزيز

تقديم:

تطلق العين في الأغلب على الباصرة المعروفة وإن كانت مجازاً تطلق ويراد بها أشياء كثيرة كالذهب والدينار والجاسوس وكبير القوم ... الخ والذي يعنينا هنا هو الجارحة المعروفة، وقد وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة تبين حالاتها وحركاتها وما يعتريها من أوضاع مختلفة كالزوغان والدوران والشخوص والدموع والخشوع ... الخ.

والقرآن الكريم يعبّر عنها أحيانا بالعين قال تعالى: ﴿ ...**تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ**.﴾[1] وبالنظر في قوله تعالى: ﴿ ... **نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ** ...﴾[2] والنظر في القاموس المحيط هو التأمل بالعين، والفرق بينه وبين الرؤية: أن الرؤية: إدراك المرئي، والنظر: الإقبال بالبصر نحو المرئي، ولذلك قد ينظر إلى الشيء ولا يراه[3].

ويعبّر القرآن عن العين أحيانا بالبصر ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ**﴾[4]، والبصر هو: حسّ العين والجمع أبصار.

ويعبر عنها بالطّرف﴿ ...**آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾[5] و﴿ ..**يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ**...﴾[6] ويعبّر عنها بالرؤية ﴿..**هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ**... ﴾[7].

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

والإشارة بالعين إحدى وسائل الاتصال المعروفة بين البشر، وهي في ثباتها أو تقلبها توحى بكثير من المعاني، بها يرى الإنسان ما حوله، وبها تعرف حالته من سرور وحزن، وقلق واطمئنان، وغضب ورضا، ومهما حاول الإنسان أن يخفى ما بداخله، فإن عينيه تنبئان عنه، ولذا قيل (رب لحظ أنم من لفظ) و(الصب تفضحه عيونه)[٨].

وتنوب لغة العين عن لغة الكلام في حالات الخجل أو الخوف من الرقباء.

فهذا عمر بن أبي ربيعة يقول:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها
إشارة محزون ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا
وأهلا وسهلا بالحبيب المتيّم[٩].

وأحمد شوقي يقول:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت
عينيّ في لغة الهوى عيناك[١٠].

إن لغة العيون أقوى من أيّة لغة ، لأن المتكلم بالألفاظ يمكن أن ينمق ألفاظه أو يزورها، ويمكن أن يدّعى الغضب فيرفع صوته بعبارات نابية أو يتظاهر بالسرور فيمدح ويثني، ولكن العيون لا

تكذب ويمكن الاستدلال بها على ما في الضمير. وقد عقد د.كريم حسام الدين في كتابه **الإشارات الجسمية**[١١] فصلا عن تلك الإشارات ٤١في المصادر العربية أفاض فيه الحديث عن حركات الجوارح ومنها العين، فابن عبد ربه تحدّث عنها تحت عنوان (الاستدلال باللحظ على ما في الضمير) وذكر أن العين باب القلب ــ فما كان في القلب ظهر في العين[١٢]، والثعالبي تحدّث عن ذلك تحت عنوان: (كيفية النظر وهيئاته) من رمق وتحقيق وتبريق ولمح وتحديج وشخوص[١٣] والأنصاري الدمشقي صاحب (**السياسة في علم الفراسة**) تحدّث عن أحوال العين من خمسة وجوه:

١- الوضع: كالجاحظة والغائرة.

٢- المقدار: كالعظيمة والصغيرة.

٣- الجفن: كالغليظ والرقيق، والمستوي والمنقلب وقلة الطرف وكثرته.

٤- الحدقة: وحركتها كالبطء والسرعة؟

٥- المشابهة بأعين الحيوان[١٤].

أما صاحب **الزهرة**[١٥] فقد أسهب في الاستشهاد بالشعر على ما تقوم به العين من تخاطب وتواصل بلغة لا تقل فصاحة عن الألفاظ؛ فمسلم بن الوليد يعرف من عيني محبوبته الوصل والهجر:

جعلنا علامات المودة بيننا

دقائق لحظ هنّ أخفى من السحر

فأعرف منها الوصل في لين طرفها
وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر

وأخر يتبادل مع محبوته الإشارات خوف الأهل والرقباء:

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم ننطق
كلاما تكلمنا بأعيننا سرا
فنقضى ـ ولم يعلم بنا ـ كل حاجة
ولم نظهر الشكوى ولم نهتك السترا

والعيون تعبر عن الشكوى:

تشكو فأفهم ما تقول بطرفها
ويرد طرفي مثل ذاك فتفهم

والعيون تتحاور:

أشارت بعينيها إشارة خائف
حذار عيون الكاشحين فسلّمت
فردّ عليها الطرف مني سلامها
وأَوْمَا إليها: اسكني فتبسّمت
وأومت إلى طرفي يقول لطرفها
بنا فوق ما تلقى فأشجت وتيمت

وتستطيع عين المحب أن ترسل رسالة مفهومة فيرد عليها المحبوب:

كتبت إلى الحبيب بطرف عيني

كتابا ليس يقرؤه سواه

فأحبرني تورُّد وجنتيه

وكسر جفونه أن قد قرأه[١٦].

وابن حزم في طوق الحمامة يعقد بابا (للإشارة بالعين) يعطي فيه العين إمكانات اللغة المنطوقة، وربما أكثر من ذلك،إذ بإشارة العين يقطع ويتواصل، ويوعد ويهدّد، وينتهر ويبسط ويُؤمر ويُنهى، وتُضرب بها الأوعاد، وبها يكون المنع والعطاء والسؤال والجواب والتنبيه على الرقباء[١٧].

وقد بلغ ابن حزم في دقة ملاحظة العين مبلغا يدعو للدهشة،

إذ يفصل في هيئة اللحظ تفصيل العارف الخبير- وكأنه يقدم دروسا في التواصل بلغة العيون، فالإشارة بمؤخرة العين الواحدة: نهى عن الأمر، وتفتيرها: إعلام بالقبول،وإدامة نظرها:دليل على التوجع والأسف،وكسر نظرها:آية الفرح،وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها صرفها بسرعة: تنبيه على المشار إليه، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام. ثم ينبه إلى أن كل هذه الحركات والإشارات لا يمكن تصويرها ولا وصفها إلا بالأقل منها، فإن سائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة. ويذكر صاحب **الإمتاع والمؤانسة** أثر غناء إحدى الجواري على المستمعين فيقول: (فهذا يهش فؤاده

ويتحرك ساكنه ويومي بقبلته ويغمز بطرفه ... وذاك إذا سمع انقلبت حماليق عينيه وسقط مغشيا عليه [١٨].

فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نستجلي حركات العين وهيئاتها وإشاراتها فسنجد أن القرآن الكريم قد صوّر العين في معظم حالاتها معبرا عنها _ كما قلنا _ بالبصر والنظر والرؤية والعين والطرف.

وسوف نتناول هنا سلوك العين في القرآن محاولين معرفة لغتها والسر البلاغي لكل شكل من أشكالها مستهدين في ذلك بالسياق والنظم البديع وذلك على النحو التالي:

١ـ دوران الأعين:

يأتي دوران الأعين في سياق الحديث عن المفارقة المخزية في موقف بعض المتخاذلين الجبناء في غزوة الأحزاب، قال تعالى: **﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِيْنَ مِنْكُمْ وَالْقَآئِلِيْنَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُوْنَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُوْنَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِيْ يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوْكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ...﴾** [١٩].

إن المعوقين هنا هم نفر من المنافقين خرجوا للقتال مع المؤمنين لاَ رغبةً في الجهاد، بل للإيهام بأنهم معهم، وهؤلاء أشحاء على المؤمنين بأيّ جهد لأن نفوسهم المريضة تضن بهذا الجهد ويوسع أبو حيان هذا الشح ليشمل(البخل على المؤمنين بكل ما فيه

نفع)[٢٠] سواء أكان ماديا أو معنويا والقرآن يرسم لنا - في سخرية لاذعة، صور هؤلاء (وقت الخوف)[٢١] وعند احتدام المعركة.إن جوارحهم تنطق بالهلع والفزع فإذا هم ينظرون إليك نظرة الجبان الرعديد يستنجدون بك لتنقذهم مما هم فيه وتشهد على ذلك عيونهم التي تدور (كدوران الذي يغشى عليه من سكرات الموت حذرا وخورا...)[٢٢]،وتشبيه دوران أعينهم وقت الخوف بدوران أعين المغشى عليهم عند الموت تشبيه جيد، لأن الجامع بين الاثنين هو الموت: محققا في المغشى عليه ومتوقعا في الخائفين وقت المعركة.

إن حركة العين بالدوران المبهم حيث لا ثبات في اتجاه معين حركةٌ معروفة تصيب الخائف المفزّع وقت مداهمة الخطر، كما تصيب المحتضر المغشى عليه وهو يعالج سكرات الموت. وهي في التعبير القرآني كناية عن هذه الحالة التي أصابت ولا تزال تصيب المنافقين في كل جيل، لكن التعبير هنا يكتسب بعدا جماليا أروع من غيره حين يرد في سياق وصف هؤلاء المنافقين قبل المعركة حيث الشح والبخل والبأس القليل وأثناء المعركة حيث الهلع والنظر المختلط وبعد المعركة عند زوال الخطر حيث التبجح بالبطولة الكاذبة دون حياء وحيث يسلقون المسلمين بالألسنة الحداد طلبا للغنائم... وهذه المفارقة التصويرية غير المتوقعة تسجل على هذا الصنف من البشر صورة مثيرة للاشمئزاز باعثة على السخرية. وتصمهم بوصمة العار إلى يوم الدين.

٢ زوغان البصر:

الزوغان في اللغة: الميل ــ يقال: زاغ البصر زوغا: اذا مال وأمال، وزاغ في المنطق زوغانا: إذا جار، وزاغ البصر: كلّ. وزاغت الشمس: مالت ففاء الفيء[٢٣].

وقد ورد زوغان البصر في سورة الأحزاب في سياق تذكير الله للمؤمنين بنعمته عليهم حين صرف عنهم الأحزاب الذين تجمعوا من قريش وغطفان واليهود وأحاطوا بالمدينة، قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُوْدٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيْحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيرًا. إِذْ جَآءُوْكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوْبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّوْنَ بِاللَّهِ الظُّنُوْنَا**﴾[٢٤].

لقد تملّك الخوف قلوب المؤمنين حين رأوا المدينة تحاصر من فوقهم ومن أسفل منهم وسيطر الهلع على النفوس فزاغت الأبصار(بسبب ما استقر في داخلهم من الخوف حتى اظلمّت، أو أنهم استكثروا منظر الأعداء فصاروا يرونهم مثليهم رأي العين[٢٥]. مالت الأبصار عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصا فعل الواله الجزع، وامتد الخوف إلى القلوب فاضطربت وخفقت خفقانا شديدا كأنها زالت عن أماكنها في الصدور (قالوا إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغم الشديد ربت وارتفع القلب

بارتفاعها إلى رأس الحنجرة ـ ويجوز أن يكون ذلك مثلا في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة)[٢٦].

وبلاغة التعبير هنا عن شدة الخوف والفزع بزوغان البصر وارتفاع القلوب إلى الحناجر أبلغ من أي تعبير... ولقد جرى البلغاء على اعتبار ذلك كناية عن صفة الخوف ... ولكن الكناية لا تمنع صرف التعبير إلى الحقيقة فهذا في رأيي أبلغ من أي كناية ... لأنه تصوير لأمر يقع بالفعل في دنيا الناس. لأن حركة العين والقلب هنا حركة إنسانية عامة. فحين تتعرض لمواقف الهول والفزع كالحرائق أو الكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين أو حروب مدمرة، يؤثر ذلك على حركة العين فتزوغ أو تشخص أو تدور ويزداد القلب خفقانا حتى ليكاد ينخلع من مكانه.

وقد ورد زوغان البصر بالنفي في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**﴾ وذلك في مقام المدح لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ إنه وهو في الحضرة العلوية ليلة المعراج كان ثابت البصر غير خائف ولا وجل (فما مال بصره هكذا ولا هكذا بل أثبت ما رآه مستيقنا صحيحا من غير أن يزيغ بصره أو يتجاوزه[٢٧]. وفي ذلك كناية عن ثبات قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وقوة يقينه.

٣- شخوص البصر:

أما شخوص البصر فهو فتح العينين فلا تطرف، أو عدم استقرار البصر في مكان، وهي حالة - كما قلت منذ قليل - تعتري العينين عندما يفاجأ الإنسان بالهول والفزع - وقد ورد أنه عندما يثار شخص فإن إِنْسَانَيَّ عينيه يمكن أن يتمددا إلى أربعة أضعاف حجمهما العادي[٢٨] ولا شك أن شخوص البصر يصاحبه هذا الاتساع والتمدّد في حدقة العين بحيث تبدو العين في تلك الحالة أكبر من حجمها العادي.

وقد ورد شخوص البصر في القرآن الكريم عند تصوير أهوال القيامة وذلك في سورتين هما سورة إبراهيم وسورة الأنبياء.

ففي سورة إبراهيم ورد قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُوْنَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيْهِ الْأَبْصَارُ. مُهْطِعِيْنَ مُقْنِعِي رُءُوْسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ**﴾[٢٩].

يأتي التعبير بالفعل المضارع (تشخص فيه الأبصار) في سياق النهي التحذيري ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً**﴾ حتى لا يتمادى الظالم في ظلمه، لأن التعبير بالمضارع يستحضر صورة الفعل أمامه - وتقديم المتعلق(فيه) على الفاعل (الأبصار) يؤكد أن ذلك حادث فيه لا محالة. ويزيد القرآن في تشخيص المنظر وتجسيمه حين يعقب شخوص البصر ببيان الحال التي سيكونون عليها ﴿**مُهْطِعِيْنَ**

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ والإهطاع - كما يفسره الزمخشري - أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف[٣٠] وهو معنى قريب من شخوص البصر، ويؤكد القرآن ذلك بتصويرهم مهرولين رافعي رءوسهم مفتوحي العيون فلا تنطبق أجفانهم وبأن قلوبهم من شدة الخوف والجبن هواء خالية من أية قوة.

أما في سورة الأنبياء فقد ورد قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِيْ غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِيْنَ﴾[٣١].

وتأتي كلمة (شاخصة) في سياق المفاجأة التي تدل عليها (فإذا هي) و (الفاء إذا اجتمعت مع إذا تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد[٣٢]، والتعبير بـ (هي) المبهمة التي توضحها كلمة (أبصار) بعدها يساعد في رسم مشهد المفاجأة المذهلة للأبصار - كما أن مشاركة الكلام لحركة العين بالشخوص حين يعقب الظالمون في حسرة وندم قائلين ﴿يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِيْ غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِيْنَ﴾ هذا التعقيب (يُظهر تفجّع المفجوع الذي تنكشف له الحقيقة المروعة بغتة)[٣٣]، ويساعد هذا المشهد كله على رسم صورة صادقة لأحوال يوم القيامة تؤدي دورها في التأثير في النفوس الغافلة عن هذا اليوم.

٤- بريق البصر:

وقد ورد بريق البصر-أيضا-في سياق الحديث عن علامات يوم القيامة وأحواله رداً على سؤال من ينكر هذا اليوم ﴿**يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ**﴾ ومن ثم يأتي الجواب الرباني بذكر بعض علامات هذا اليوم وما يعتري الإنسان والكون فيه من تغيرات ﴿**فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ**﴾[٣٤] وأول هذه العلامات- وهو ما يعنينا في هذا البحث - أن يفزع الإنسان من هول ما يرى فتبرق عينه وتلمع من شدة الفزع وتتحير حتى لا تطرف.

ويقول الزمخشري:(برق البصر: تحيّر فزعا وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره، وفي قراءة: (وبلق) أي انفتح وانفرج[٣٥] وهذه القراءة تؤدي معنى الدهشة والفزع أيضا، ويرى الثعالبي أن معنى ﴿**فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ**﴾ إذا غاب سواد عينيه من الفزع[٣٦]. وهذه التفسيرات جميعها تقترب من معنى شخوص البصر الذي أشرنا إليه سابقا مما يعني أن التعبير عن أهوال يوم القيامة يتنوع ويتوزع والهدف الديني من وراء ذلك كله هو التحذير من الغفلة عن يوم هذه صفاته وهذا ما سيحدث لهم فيه وعند ذلك يتحقق الزجر والردع والارعواء وتحقق البلاغة القرآنية ـ بهذا الأسلوب ـ هدفها الديني بجانب الهدف الجمالي التذوقي.

٥- العين القريرة:

وفي مقابل تلك الأبصار الزائغة الشاخصة البارقة وهذه الأعين الدائرة الحائرة، يحدثنا القرآن عن نوع آخر من العيون الراضية الوادعة المطمئنة القريرة.

تلك هي عيون من غشيتهم السكينة وامتلأت قلوبهم بالرضا والتسليم المطلق لقضاء الله والفرح به. فمن تتشبع روحه بهذه المعاني، ينعكس ذلك على منظر عينه، فلا تشخص ولا تبرق ولا تزوغ ولا تدور. بل تكون قريرة بما تحمله تلك اللفظة من معاني الاستقرار والهدوء والصفاء.

وقد عبّر القرآن الكريم عن تلك العين في الحالات التي اقتضت ذلك وبرز هذا واضحا في حديث القرآن عن أم موسى عليه السلام وعن امرأة فرعون وعن أم عيسى عليه السلام. وكذلك عند الحديث عن صفات عباد الرحمن.

فالله سبحانه وتعالى يمن على موسى ويذكره بنعمته عليه إذ حفظه وهو في التابوت السابح فوق عباب اليمّ ، وأرجعه إلى أمه الحزينة كي تقر عينها ولا تحزن، قال تعالى: ﴿**فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ**﴾[٣٧] وفي موضع ﴿**فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ**﴾[٣٨].

فالتعبير القرآني بالعين القريرة هو كناية عن سكون النفس واطمئنان القلب إذ كان فؤاد أم موسى فارغا كما أخبرنا القرآن

الكريم ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيْ بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾[٣٩].

وفي سياق قصة موسى (طفل التابوت) يأتي التعبير بالعين القريرة على لسان امرأة فرعون حين تطلب من زوجها الجبار الذي كان يقتل كل صبيان قومه - ألا يقتل هذا الطفل ليظل قرة عين لها وله ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِيْ وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوْهُ عَسَىَ أَنْ يَنْفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُوْنَ﴾[٤٠]. فموسى - بما أوتي من براءة ووداعة ونور، وبما ألقى الله عليه من المحبة من كل من رآه - كان مصدر سرورها وراحة عينها - ولا شك أن الإنسان يأنس لبراءة الأطفال ووداعتهم وينعكس ذلك على الجوارح. والعين هي مرأة القلب .... فيظهر عليها هذا الفرح والهدوء المكنى عنه بـ (قرة عين).

وأما أم عيسى (مريم عليها السلام) فإن حالتها حين جاءها المخاض وقد تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذه اللحظة التي ستواجه فيها قومها بطفل من غير أب وما كان أبوها رجل سوء وما كانت أمها بغية. أقول: إن حالتها كانت تحتاج إلى من يهدئ روعها ويطمئن قلبها - فكانت معجزة عيسى أن ناداها من تحتها ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَآ أَلاَّ تَحْزَنِيْ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّيْ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. فَكُلِيْ وَاشْرَبِيْ وَقَرِّيْ عَيْنًا..﴾[٤١].

أي طيبي نفسا ولا تغتمي وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك.. إنّ ﴿ **قَرِّيْ عَيْنًا**﴾ في موضعها من السياق تلخص حالة الرضا والثقة بالله وبنعمته عليها.

ويتكرر ذكر العين القريرة في دعاء الصالحين من عباد الرحمن في سورة الفرقان ﴿**وَالَّذِيْنَ يَقُولُوْنَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِيْنَ إِمَاماً**﴾[٤٢]. فالزوجات الصالحات والذرية الطيبة المطيعة لله قرة عين يسر برؤيتهم عباد الله (فليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله[٤٣].وهكذا نرى العين في موضع الرضا والطمأنينة هادئة ساكنة لا قلق فيها ولا اضطراب-هذا إذا كان التعبير على الحقيقة، أما بالمجاز فهي كناية عن الرضا القلبي والاطمئنان النفسي. وكلا التوجهين جائز.

٦ - الأعين الدامعة:

وردت الإشارة إلى العين الدامعة في موضعين:

الموضع الأول قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوْا مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُوْلِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيْضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوْا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُوْنَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِيْنَ**﴾[٤٤].

نزلت الآية في النجاشي وأصحابه حين استمعوا من جعفر بن أبي طالب إلى سورة مريم فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع[٤٥] والبكاء بهذه الصورة يدل على رقة قلوبهم ومقدار تأثرهم

بالقرآن الكريم والتعبير بالفعل المضارع **تَفِيْضُ** يستحضر الصورة من ذاكرة التاريخ ليعرضها في كل حين. ثم إن مادة **تَفِيضُ** تدل على امتلاء عيونهم بالدمع وفيضانه من جوانبها وذلك أبلغ في التعبير عن كثرة بكائهم عندما عرفوا الحق. وإسناد الفيض إلى الأعين وإن كان حقيقة للدموع، كما قيل:

ففاضت دموع العين منّي صبابة

هو إقامة للمسبب مقام السبب، لأن الفيض مسبب عن الامتلاء فالأصل ترى أعينهم تمتلئ من الدمع حتى تفيض[٤٦] وذلك مبالغة في البكاء الناتج عن شدة إيمانهم بالله، وطمعا في أن يدخلهم ربهم مع القوم الصالحين ﴿**وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّـهِ وَمَا جَآءَ نَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِيْنَ**﴾[٤٧].

ولا شك أن الدموع دليل على رقّة القلوب وشفافية الوجدان، وإذا كثرت حتى تفيض، دل ذلك على شدة التأثر.

والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿**ولاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيْضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوْا مَا يُنفِقُوْنَ**﴾[٤٨].

وهو شبيه في تعبيره ومغزاه بالموضع الأول إلا أن دافع البكاء هنا كان الحزن الشديد لعدم مشاركتهم الرسول في الجهاد في غزوة تبوك بسبب عجزهم عن تدبير الراحلة ونفقات الغزو.

٧ ـ الأعين الخائنة:

ورد الحديث عن تلك الأعين في موضع واحد في القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُوْرُ**﴾[٢٩] للتدليل على شمول علم الله لكل شيء. فهذه النظرات الخائنة التي تخفي الغدر والبغض للمؤمنين وما يصاحبها أحيانا من (كسر جفن وغمز ونظر يفهم معنى ويخفى معنى آخر) لا تخفى على الله كما لا يخفى عليه ما يكتمونه في صدورهم ... وفي هذا من التحذير والتهديد ما يردع العبد ويدفعه لإخلاص الطوية وصدق العقيدة. وإضافة الخيانة إلى الأعين بتقديم (خائنة) عليها أبلغ في التعبير من (الأعين الخائنة) لأن التقديم هنا يوحى بشناعة الخيانة وعظم جرمها كما يوحى التقديم أيضا بأن الخيانة طبع أصيل عند هؤلاء القوم.

إن النفوس المجبولة على الغدر والخيانة والقلوب التي تخفي الكراهية.. مهما حاولت إخفاءها لابد أن تفضحها العيون، لأنها تعبر عما في النفوس فتكشف المستور في حنايا الصدور وقد أورد الجاحظ في ذلك قول القائل:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها

من المحبة أو بغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامتة

حتى ترى من ضمير القلب تبيانا[٥٠].

٨ - غشاوة البصر:

- تذكر مادة (غشى) في المعجم ويراد بها التعمية على الشيء وتغطيته، ويقال: ﴿عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةٌ﴾ بضم الغين وكسرها: غطاء[٥١].

وغشاوة البصر: حركة لا إرادية تحدث للإنسان فتحجب رؤية العين، إذ يغطى إنسان العين بمواد تفرزها العين نتيجة الخوف الشديد أو عندما يغمى على الشخص بسبب مرض أو بسبب مفاجأته بخبر محزن أو مفرح يأتيه على غير توقّع. وهي حالة تصيب المحتضر أيضا وقد يصحبها دوران العين أو شخوصها وثباتها.

وقد استخدم القرآن الكريم تلك الحركة في عدة آيات يصور بها مواقف مختلفة وبدلالات يحددها السياق (فهي ترد مرة في جانب الكفار فتصبح نقمة ووبالا، ومرة ترد في جانب المؤمنين فتكون رحمة وأمانا وهي في جانب الكفار غالبا ما تكون مصحوبة بالختم على القلوب والأسماع. وذلك للتأكيد على صلادة القلوب

وشدة الإعراض عن الإيمان ولبيان أن هذا الإعراض أو الصدود قد بلغ منتهاه، لأن هؤلاء عطلوا منافذ الحس والإدارك لديهم فلا يريدون الانتفاع بما منحهم الله من حواس السمع والبصر والقلب في الاهتداء إلى نور التوحيد. ومثل هؤلاء لا يجدي معهم النصح ولا ينفعهم النذير، إذ يستوى عندهم أن تنذرهم بعواقب كفرهم أو لم تنذرهم لأنهم صدوا أنفسهم عن قبول الحق ابتداء، واتخذوا أهواءهم الضالة آلهة يعبدونها من دون الله. فكانوا كمن غطى عينيه بغطاء سميك فهو لا يرى الطريق.

نرى ذلك واضحا في سورة (البقرة)، وسورة (الجاثية)، وسورة(يس).

ففي سورة البقرة يقول الله تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَىَ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ**﴾[٥٢].

إن الكفار هنا قد ختم الله على قلوبهم وأسماعهم وغطى على أبصارهم بتلك الغشاوة التي تشتمل على العين وتحيط بها (فإن بناء غشاوة – على (فعالة) بالكسر والفتح –كما يقول الزمخشري – لما يشتمل على الشيء كا لعصابة والعمامة[٥٣] والعصابة والعمامة تشتملان على الرأس وتغطيانها وتحيطان بها، وكذلك فعل الغشاوة بالعين، وهذا أبلغ في حجب الرؤية.

والختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار مجاز طريقه الاستعارة تارة والتمثيل تارة أخرى.

فالاستعارة: أن تجعل قلوبهم ـ لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قوله واعتقاده، وأسماعهم، لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه- كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم- لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة، كما تجتليها أعين المبصرين - كأنما غطى عليها وحجبت وحيل بينها وبين الإدراك.

وأما التمثيل: فأَنْ تُمثَّلَ حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلّفوها وخلقوا من أجلها - بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية[٥٤] وسواء أتحققت بلاغة الختم والغشاوة عن طريق الاستعارة أو التمثيل فإن العبرة المستفادة من السياق هي: أن مثل هؤلاء لا يرجى منهم استجابة لدعوة الحق سواء أ أنذَرْتَهُمْ الرسول أم لم ينذرهم، وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا تذهب نفسه عليهم حسرات لعدم إيمانهم، فقد بلّغ الرسالة وأدى الأمانة وليس عليه هدَاهم ولكن الله يهدي من يشاء.

وقد جاء ختام آية البقرة ﴿**وَعَلَىٰٓ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ ليصور النهاية المتوقعة لكل من عطّل حواسه وألغى مداركه بالعناد والاستكبار.

وفي سورة الجاثية يقول الله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾[٥٥].

إن المتأمل في نظم هذه الآية يرى أن أسلوب الاستفهام قد غلب عليها. وهو أسلوب يتدرج من التعجب والإنكار ويترقى إلى النفي ثم يختتم بالحث والتحضيض إذ يبدأ بالتساؤل المثير للدهشة والعجب من هذا الذي يتخذ هواه إلهه. ثم بالتساؤل للنفي والاستبعاد لأن من أضله الله لن يجد له هاديا ... وينتهي بالحث على التذكر والتفكر... ووسط هذا الجو المليء بالدهشة والاستبعاد والاستغراب يجيء الختم على السمع والقلب وتغشية البصر لتأكيد عظم الجرم الذي ارتكبه هؤلاء حين انقادوا لهواهم انقيادًا أعمى فكأن هذا الهوى صار إلهاً معبوداً واجب الطاعة دون تفكير ... ومثل هؤلاء لا فائدة ترتجى منهم فلن يستطيع أحد هداهم بعد أن أضلهم الله.

وفي سورة (يٰسٓ) يقول الله تعالى:﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُوْنَ وجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُوْنَ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَ أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ** ﴾[٥٦].

إن غشاوة الأبصار في سورة ياسين تتميز عن سابقتيها بأنها وردت في سياق تصوير الكفار في صورة بشعة شدت فيها أيديهم إلى أعناقهم وربطت بطوق تحت أذقانهم يرفع رؤوسهم قسرا فلا

يملكون حرية النظر، ثم ألقى بهم بين سدين يحجبان عنهم الرؤية من أمامهم ومن خلفهم، ولنا أن نتأمل صورتهم تلك وهم مقيدون محبوسون مغطى على أبصارهم. فهل يرجى من هؤلاء رؤية الحق؟

وقد عرض الزمخشري هذه الصورة على سبيل التمثيل بقوله: (مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم، في أن لا تأمل لهم ولا تبصر، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله[٥٧].

ولا شك أن بلاغة التمثيل تكمن كما قال عبد القاهر في أنه إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة وكساها منقبة، ورفع من أقدارها وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستشار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا [٥٨].

ولعل الغرض البلاغي من عرض الكفار بهذه الصورة القبيحة البشعة هو: (السخرية والتعجب) من مثل هذا الصنف من الناس الذين يجعلون بينهم وبين رؤية الحق كل هذه الحواجز التي ذكرناها... هذا بالإضافة إلى تعزية الرسول وتسليته لعدم إيمان من هم على شاكلتهم، والتوجه بدعوته وإنذاره وتبشيره إلى فريق آخر﴿ **إنَّمَا**

تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْـرَ وَخَشِـيَ الرَّحْـمَنَ بِـالْغَيْبِ فَبَشِّـرْهُ بِمَغْفِـرَةٍ وَأَجْـرٍ كَرِيْمٍ ﴾ (٥٩).

وبقي أن نقرر أن القرآن الكريم ـ وقد عـرض لنـا صـورة مـن أصابتهم غشاوة البصر في الدنيا فلم يروا الحق أو تعـاموا عنـه ـ قـد عرض الصورة المقابلة لذلك يوم القيامة في سـورة (ق) وذلـك حيـن تنقشع تلك الغشاوة وينكشف ذلك الغطاء الذي غطى العيون زمنا... فيعود البصر حديدا وتتضـح الحقيقـة ولكـن بعـد فـوات الأوان. قـال تعالى: ﴿**وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِيْ غَفْلَةٍ مِـنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيْدٌ**﴾(٦٠) شبه سيطرة الغـفلة على نفـس الكـافر فـي الدنيـا بالغطـاء الـذي يغطـي الجسـد كلـه أو بالغشاوة التي تغطي عينيه فلا يبصر شيئا ثم هو يوم القيامة وقد زالـت عنه الغفلة وانتزع من على جسـده الغطاء وذهبت غشاوة العين فصـار بصره حديدا، ولكن أنى له النجاة ولطالما أنذر وحذر؟

لكن التغشية على الأبصـار فـي السـياق الإيمـاني وهـو سـياق النعمـة والرحمة والإحسان ترد فـي مجـال التذكـير بنعمـة اللـه علـى المؤمنين أثناء القتال في غزوة بدر، إنها هنـا عـامل قـوي مـن عوامـل انتصـار القلـة المؤمنـة علـى الكـثرة الكـافرة. قـال تعـالى فـي سـورة الأنفال:﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُـمْ مِـنَ السَّـمَآءِ مَـآءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوْبِكُمْ وَيُثَبِّـتَ**

بِهِ الأَ قْدَامَ﴾[٦١] وقال في سورة آل عمران ﴿ **ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنْكُمْ﴾**[٦٢].

النعاس في اللغة ليس هو النوم المستغرق المذهب لجميع الحواس، بل هو كما يقول الفيروز آبادي: الوسن أو فترة في الحواس[٦٣].

إن النعاس الذي يغشى العين يصنع غطاء شفيفا على الباصرة يريحها من الإرهاق ـ ويفتر الحواس المشدودة بالخوف والترقب فيصحو الإنسان بعدها نشيط الذهن قوى الجسم حديد البصر، والتغشية: التغطية[وهي استعارة: جعل ما غلب عليهم من النّعاس غشيانا لهم[٦٤].

وقد كان المسلمون في تلك المعركة غير المتكافئة محتاجين إلى ذلك النعاس الذي علل بأنه (أمنة)[٦٥] وتظهر دقة التعبير القرآني بهذا اللفظ من جهتين:

الأولى: إفادة أن (الأمنة) غير (الأمن)، لأن الأمنة طمأنينة مع بقاء أسباب الخوف.

والأمن يكون بزوال أسبابه[٦٦] فالمعركة لم تبدأ بعد والعدو مازال متربصا.

الثانية: مع أن أسباب الخوف ما زالت قائمة إلا أن التعبير بأمنة فيما أرى ـ بتوالي الفتحة على حروفها الأربعة (أمنةً) مع التنوين المنغّم ـ

يعطي إحساسا عجيبا بالراحة النفسية عقب هذا النعاس الخفيف يتناسب مع الجو العام للسياق.

وفي مقابل الأمنة والطمأنينة التي تنزل بالمؤمنين في وقت القتال بسبب ذلك النعاس الخفيف الذي يغشى أعينهم، تجيء غشية أخرى للكفار والمنافقين مباينة للأولى بسبب الهلع والرعب والفزع وقت المعركة مما يفت في عضدهم ويؤدي إلى هزيمتهم فهم ﴿...**يَنْظُرُوْنَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾[٦٧] وهم ﴿...**تَدُوْرُ أَعْيُنَهُمْ كَالَّذِيْ يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾ والمقابلة في القرآن الكريم بين هذه المواقف تظهر الفرق بين جيش الله وجيش الشيطان وبضدها تتميز الأشياء.

٩- الطمس على الأعين:

ورد الطمس على الأعين في موضعين هما:

(١) قوله تعالى في سورة يٰسٓ ﴿**وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُوْنَ**﴾[٦٨].

(٢) قوله تعالى في سورة القمر ﴿**وَلَقَدْ رَاوَدُوْهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوْا عَذَابِيْ وَنُذُرِ**﴾[٦٩] والطمس في اللغة المحو والإزالة ــ وهو في الآيتين مقصود به (تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة كسائر الوجه)[٧٠].

والطمس على الأعين في آية (يُسَن) يأتي في سياق التهديد والوعيد للكفار الذين أعطاهم الله نعمة البصر ولكنهم يتعامون عن نور الحقيقة فأولى بهم أن تمسح تلك العيون (فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المألوف لهم الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم لم يقدروا، وتعايى عليهم أن يبصروا ويعلموا جهة السلوك فضلا عن غيره.. (٧١).

إن مسح العين وتسويتها بالوجه صورة قبيحة شائهة يوقع مجرد تصورها الرّعب في القلوب فكيف إذا هددوا بذلك وبما هو أشد من ذلك وهو الآية التالية التي تهدد بالمسخ والتجميد في مكانهم فلا يستطيعون المضيّ ولا الرجوع ﴿**وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوْا مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُوْنَ**﴾(٧٢) وكل هذا التهديد الدنيوي يقابله ما سبق قبل ذلك بالتهديد الأخروي بالختم على الأفواه وترك الجوارح تشهد على أفعالهم ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيْهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ**﴾(٧٣).

أما طمس الأعين في سورة القمر فليس في سياق التهديد... بل إنه إخبار بما حدث فعلا لقوم لوط حين راودوه عن ضيفه منحرفين بذلك عن الفطرة السوية غير آبهين بنصائحه وتوسلاته وتهديداته، فكان (أن طمس الله أعينهم وجعلها كسائر الوجه ليس لها شق (٧٤).

١٠- التأثير على الأعين بالسحر:

أما التأثير على الأعين بواسطة السحر، فقد ورد في قوله تعالى عن سحرة فرعون ﴿**فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوْا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوْهُمْ وَجَآءُوْا بِسِحْرٍ عَظِيْمٍ**﴾[٧٦] فحين ألقى سحرة فرعون حبالهم وعصيهم، استطاعوا التأثير على عيون الناس بما صاحب الإلقاء من تعاويذ وهمهمات يلجأ إليها السحرة، فأروها ما ليس حقيقة حتى إنه قد خيل إليهم أنها حيات تسعى. وقد أثبتت بعض الأبحاث العلمية أن في مقدور الساحر- عند التركيز الشديد - إطلاق أشعة خفيفة تصيب جهاز العين بالاختلال فيرى الشيء على خلاف حقيقته، وهذا ما حدث من سحرة فرعون إذ جاءوا - كما يقول القرآن - بسحر عظيم وعند ذلك أوحى الله لموسى عليه السلام أن يلقى بمعجزته ﴿**أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُوْنَ**﴾ (الأعراف:١١٧).

إن المعجزة لن يغلبها السحر أبدا، ولذلك عندما وقع الحق بطل السحر ﴿**وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِيْنَ قَالُوْا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُوْنَ**﴾[٧٦] زالت الغشاوة التي أحدثها السحر في عيون الجميع حين رأوا عصا موسى تتحول إلى حية حقيقية معجزة تلقف ما خيل إليهم منذ قليل أنها حيات وثعابين... إن السحرة أدركوا بخبرتهم أن موسى ليس بساحر. وإنما هو نبيّ مؤيّد من الله بمعجزة العصا. ولذلك ثبتوا على إيمانهم أمام تهديدات فرعون لهم بتقطيع

الأيدي والأرجل والصلب داعين ربهم قائلين﴿... رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِيْنَ﴾.

١١- حركة الغمز واللمز والهمز:

ترد حركة العين بالغمز واللمز والهمز في القرآن الكريم في مواقف يغلب عليها جانب الطعن والعيب والاحتقار والاستهزاء بالمنظور إليه - وهي مواقف تنسجم مع المعنى اللغوي لهذه المفردات التي تعني في المعاجم الإشارة بالعين إشارة فيها هذا الجانب.

فالغمز: الإشارة بالجفن أو باليد طلبا إلى ما فيه معاب ومنه قيل: ما في فلان غميزة أي نقيصة يشار بها إليه [٧٧].

واللمز: العيب والإشارة بالعين ونحوها[٧٨]، واللمز: على وزن فعل: بضم الفاء وفتح العين كثير الطعن خفية بالإشارة أو باللسان أو بالعين أو بغيرهما [٧٩].

والهَمْز: والهمزة: بالمعنى نفسه والهَمْز: الغمز أيضا [٨٠].

وبالرجوع إلى سياق كل آية نجد تلك المعاني مجسمة شاخصة تتحقق فيها بلاغة السياق القرآني لتؤدي دورها في تصوير الموقف والتأثير في السامعين.

(أ) ففي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ أَجْرَمُوْا كَانُوْا مِنَ الَّذِيْنَ آمَنُوْا يَضْحَكُوْنَ وَإِذَا مَرُّوْا بِهِمْ يَتَغَامَزُوْنَ**﴾[٨١] تأتي حركة التغامز بالجفن أو باليد في سياق التقابل القرآني بين ما كان يفعله المجرمون الكافرون في حق المؤمنين في الدنيا، فهم يسخرون منهم بالضحك عليهم تارة، وبالإشارة القبيحة إليهم بالأعين أو بالأيدي تارة أخرى، فإذا هم أنفسهم - في الآخرة - موضع السخرية والضحك من قبل المؤمنين، والجزاء من جنس العمل ﴿**فَالْيَوْمَ الَّذِيْنَ آمَنُوْا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُوْنَ**﴾ (سورة المطففين: ٣٤).

إن إشارة العين بالتغامز حركة منتزعة من دنيا الناس تتكرر في كل زمان[٨٢] والقرآن حين يعرضها علينا نحس كأنه منزل الآن ليصور ما يحدث من فريق من الناس لا يراعون أدبا ولا حياء حين تصدر عنهم تلك الحركات القبيحة.

(ب) أما حركة العين باللّمز فقد وردت منفردة في ثلاث آيات، ومشتركة مع الهمز في آية واحدة. والآيات الثلاث هي:

١- قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَلْمِزُوْا أَنْفُسَكُمْ**...﴾ (الحجرات: ١١)

٢- وقوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوْا مِنْهَا رَضُوْا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُوْنَ**﴾ (التوبة: ٥٨)

٣- وقوله تعالى:﴿ **اَلَّذِيْنَ يَلْمِزُوْنَ الْمُطَّوِّعِيْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِيْنَ لاَ يَجِدُوْنَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُوْنَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ**﴾ (التوبة: ٧٩).

٤- أما المشتركة مع الهمز ففي قوله تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ**﴾ (الهمزة: ١)

١- في **الآية الأولى**: ينهى الله عن اللمز في سياق النهي عن رذائل اجتماعية أخرى كالسخرية والتنابز بالألقاب والاغتياب - وقد سق أن قلنا إن اللمز هو الطعن والعيب في الغير باللسان أو بالإشارة بالعين ونحوها- ومعنى لا تلمزوا أنفسكم: لا تلمزوا الناس فيلمزوكم فتكونوا في حكم من لمز نفسه وعابها،وفي التعبير بـ (أنفسكم) دعوة ضمنية إلى التماسك الاجتماعي، فالمسلم ينبغي أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره ما يكرهه لنفسه.

٢- وفي **الآية الثانية** : يفضح القرآن الكريم المنافقين حين يشير إلى ما حدث من بعضهم ممن عابوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعنوا عليه اختصاصه المؤلفة قلوبهم بمزيد من الصدقات واتهموه بعدم العدل في التقسيم. ولو كان هذا الاختصاص بالمزيد لهم لرضوا عن الرسول ولم يطعنوا عليه.

٣- وهؤلاء أنفسهم في الآية الثالثة - ﴿**اَلَّذِيْنَ يَلْمِزُوْنَ الْمُطَّوِّعِيْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ فِي الصَّدَقَاتِ**﴾ ويعيبون عليهم بالقول أو بإشارة العين، فمن تطوع بالكثير كعبد الرحمن بن عوف يلمزونه بالرياء، ومن

تطوع بالقليل كأبي عقيل الأنصاري يلمزونه ساخرين من إعطائه القليل[٨٣].

ومن ثم كان ختام الآية مشاكلا لسخريتهم ﴿**سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ ولكن سخرية الله أنكى وأشد، لأنها مصحوبة بالعذاب الأليم.

٤- أما آية الهمزة، فإن الهمز كما سبق أن أشرنا هو الغمز بالعين، وكل من الهمز والغمز طعن وعيب وسخرية بقصد كسر أعراض الناس والغض من أقدارهم، وقد وردت في مفتتح السورة بصيغة(فُعَلَة)للدلالة على أن ذلك صار عادة منهم ومثلها: اللُّعَنة والضُّحكة[٨٤].

وللتنفير من هذه الصفات الكريهة وتلك الحركات المعيبة توعد الله مرتكبها بالويل والهلاك والنبذ في الحطمة التي تحرق الأفئدة، وبالحبس في نار جهنم فلا يخرجون منها أبدا ﴿**كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ...**﴾ الخ.

١٢- الازدارء بالعين: الازدراء فعله (ازدريت على وزن افتعلت) وفي القرآن:﴿ **تَزْدَرِيَ أَعْيُنُكُمْ**﴾، أي: تستقلهم وتستهين بهم[٨٥].

والازدراء بالعين هو النظر إلى الغير باستهانة واحتقار، يقال: أزرى به إذا قصر به ـ وقد وردت تلك النظرة المستعلية في وصف قوم نوح لأتباعه بأنهم من أراذل الناس وأفقرهم، وبوصف نوح بأنه بشر مثلهم لا يستحق الرسالة – فيرد عليهم نوح عليه السلام قائلا كما ورد في الآية:

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٨٦].

ومجيء كلمة (تزدري) بهذه الصيغة الخشنة **تفتعل** يدل على وقاحة تلك النظرة وغلظة أصحابها وجلافة طباعهم - وذلك في مقابل رقة نوح عليه السلام مع أتباعه الفقراء وطمأنتهم بأن الخير الذي يضمره الله لهم يتناسب مع ما يعلمه في نفوسهم من الخير.

١٣- الإزلاق بالبصر: من زلق فلانا ببصره إذا نظر إليه نظر متسخط[٨٧] ولم يسمع الزلق والإزلاق إلا في القرآن الكريم وأصل الزّلق: المكان الدحض الذي لا نبات فيه[٨٨] وقد ورد الإزلاق بالبصر في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[٨٩] والسياق هو الأمر بالصبر على أذى الكفار وعدم اليأس من رحمة الله وعدم الضجر والغضب مما يلاقيه محمد صلى الله عليه وسلم من قومه، فلا يكون ضجرا كصاحب الحوت يونس عليه السلام.

إن الكفار هنا يزلقون الرسول وصحبه بنظرات حادة تنم عن فرط العداوة وقد فسّر الزمخشري ذلك بقوله: (يعنى أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزرا بعيون العدواة والبغضاء يكادون يزلقون قدمك أو يهلكونك من قولهم: نظر إليّ نظرا يكاد يصرعني

ويكاد يأكلني، أي: لو أمكنه بنظره الصرع والأكل لفعله كقول الشاعر:

يتقارضون إذا التقوا في موطن

نظرا يزل مواطئ الأقدام[٩٠].

فإشارة العين هنا كناية عن الحقد و الكراهة. والمتأمل في مادة (زلق) وعلاقتها بالنظر ـ بعد انتقالها من المعنى الحقيقي وهو الملاسة والنعومة والأرض البيضاء التي يزلق عليها زلقا لملاستها[٩١] إلى المعنى المجازي وهو النظر شزرا بمؤخرة العين بغضا وحسدا، المتأمل في ذلك يجد أن التعبير القرآني عن ذلك بالفعلين **(يَكَادُ...لَيُزْلِقُونَكَ)** مع تأكيد الثاني باللام، يوحي بأنها نظرة مهلكة تظهر مدى كراهية الكفار للرسول ومن ثم يطالب القرآن الرسول بالصبر على ذلك بقوله ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُوْمٌ**﴾[٩٢].

١٤ـ خشوع البصر:

ورد خشوع البصر في القرآن عند الحديث عن البعث ساعة الخروج من المقابر وعند الحساب وذلك في ثلاث آيات هي قوله تعالى:

* ﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُوْنَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**﴾[٩٣].

* ﴿يَوْمَ يَخْرُجُوْنَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُوْنَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِيْ كَانُوْا يُوْعَدُوْنَ﴾[٩٤].

* ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُوْدِ فَلاَ يَسْتَطِيعُوْنَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوْا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُوْدِ وَهُمْ سَالِمُوْنَ﴾[٩٥].

والخشوع في اللغة هو الخضوع والذل والقرآن في الآيتين الأولى والثانية يتحدّث عن المكذّبين بيوم القيامة فينقل لهم صورتهم في الآخرة وهي مغيبة في الزمن القادم لتنبعث أمامهم شاخصة في دنيا الحاضر كي يتعظوا ويؤمنوا، فلعلهم حين يرون أنفسهم يخرجون من قبورهم وقد غضوا أبصارهم في خشوع وذلة وانكسار، تدركهم الرهبة والخوف من هذا اليوم الذي طالما حذروا من هوله ولم يصدقوه.

خشوع البصر إذن كناية عن الذلة وهي في العيون أظهر منها في سائر الجوارح وكذلك أفعال النفس من ذلة وحياء وصلف وخوف وغير ذلك[٩٦] فمع أن الجوارح كلها في هذا اليوم يدركها هذا الخشوع إلا أن العين كما قلنا سابقا هي المرآة التي تنطبع عليها سائر المشاعر والخلجات، ولقد ساعدت جملة (**تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**) بالفعل المضارع على استحضار الصورة والتأكيد على استمرار حالة الذل التي تخشع منها الأبصار.

وفي هذا السياق أيضا يأتي قوله تعالى مصورا حال الكافرين عند العرض على جهنم ﴿**وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُوْنَ عَلَيْهَا خَاشِعِيْنَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُوْنَ مِنَ طَرْفٍ خَفِيٍّ**﴾[٩٧] فمع الخشوع والذل مما يلحقهم، فإنهم ينظرون إلى جهنم من طرف خفي يفسره الزمخشري بأنه تحريك ضعيف للأجفان يسارقون به النظر خفية كما يفعل المصبور حينما ينظر إلى السيف الذي فيه حتفه وهكذا نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينه منها كما يفعل في نظره إلى المحاب[٩٨].

١٥- غض البصر ومدّه:

(أ) ورد الأمر بغض البصر للرجال وللنساء في قوله تعالى:

* ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ يَغُضُّوْا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوْا فُرُوْجَهُمْ...**﴾.
* ﴿**وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوْجَهُنَّ..**﴾[٩٩].

وذلك في سياق الحديث عن الآداب العامة التي ينبغي للمسلم أن يتحلى بها فقد سبقت الآيتان بآيات أخرى تحث على عفة اللسان عقب حديث الإفك وبالنهي عن رمي المحصنات الغافلات وبالحديث عن آداب الاستئذان وذلك حفاظا على المجتمع المسلم طاهرا نقيا. ومن تلك الآداب غض البصر عن المحرمات (يغض الرجل بصره عن المرأة الأجنبية، وتغض المرأة بصرها عن الرجل الأجنبي) ومعنى غض البصر: خفضه إلى أسفل واللفظ يوحي

بما يصاحبه من خفض البصر وانكسار العين وذلها بأن على المؤمن ألا يتبجح بالنظر إلى ما حرم الله. وفي ذلك حفاظ على المجتمع المسلم من الوقوع في الرذائل. وقد درجت الجماعة العربية على استعمال (غض الطرف) عند الفخر بالحفاظ على الجار. يقول عنترة:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي

حتى يواري جارتي مثواها[١٠٠]

واستعملت ذلك في الهجاء، يقول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير

فلا كعبا بلغت ولا كلابا[١٠١]

(ب) وفي مقابل الأمر بغض البصر يأتي النهي عن مدّه في آيتين متشابهتين هما قوله تعالى لمحمد عليه السلام والخطاب لعموم الأمة:

* ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓأَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِيْنَ﴾[١٠٢].

* ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓأَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيْهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[١٠٣].

ولكن مجال النهي لا يقصد به غض البصر عن النساء المحرمات كما في سورة النور، بل يقصد به النهي عن النظر المؤدي

إلى الطمع فيما عند الغير من متاع الحياة الدنيا، فلفظ (أزواج) هنا لا يعني الزوجات، بل يراد منه (أصناف من الكفار)[١٠٤] والقرآن الكريم ينهى محمدا وصحبه عن تمنّي ما أعطي للكفار من ملذات الدنيا، لأنه أعطي ما هو أفضل من ذلك وهو السبع المثاني والقرآن العظيم في الدنيا بالإضافة إلى ما ادّخره له في الآخرة من الرزق ﴿**وَرِزْقُ رَّبِكَ خَيرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾.

وقد ساعدت الصياغة اللغوية للفعل المضارع المنهي عنه (**لا تَمُدَنَّ**) على ضرورة الالتزام بهذا الخلق الإسلامي الرفيع، لأن المادة اللغوية للفعل (مدّ) عند اسنادها إلى العين توحي بامتداد البصر إلى أبعد مجال وهذا يؤدي إلى أكثر من النظر المجرد، إنه يؤدي إلى الطمع فيما عند الغير. ولذلك جاء النهي مع التأكيد بالنون المشدّدة وتشديد الدال... ليدل على التشدّد في هذا النهي في الحاضر والمستقبل.

١٦ - لمح البصر:

ورد التعبير بلمح البصر في القرآن الكريم في آيتين هما:

(أ) قوله تعالى: ﴿**وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**﴾[١٠٥].

(ب) وقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[١٠٦].

وقد استخدمت حركة اللمح هنا على سبيل التشبيه، فلمح البصر: هو النظرة العجلى الخفيفة، أو هو اختلاس النظر بسرعة وهو معنى يتناسب مع سياق الآيتين اللتين تتحدثان عن قدرة الله تعالى وسرعة نفاذ قضائه وقدره في الدنيا(عند الخلق) وفي الآخرة (عند البعث).

ففي الأولى﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ معناها: ما خلقنا الشيء إلا بكلمة واحد وهي (كن) فيتم الخلق بسرعة خاطفة كلمح البصر. وهو كما يقول أبو حيان: تشبيه بأعجل ما يكون [١٠٧] والآية كلها كناية عن سرعة الإيجاد بأسرع مما يدركه وهمنا.

والآية الثانية: كناية عن سرعة القدرة الإلهية على الإتيان بالساعة وهي يوم القيامة التي ينكرها الكفار... فأمره فيها كلمح البصر وهو (تمثيل للقرب، كما تقول: ما السنّة إلا لحظة [١٠٨] فإن أسرع الأحوال والحوادث - طبقا لتصوراتنا - هو ما تم في لمح البصر - وزيادة (**أَوْ هُوَ أَقْرَبُ**) في هذه الآية لتأكيد هذه السرعة حتى لا يتمادي الكفار فيما هم فيه من ضلال.

١٧ ـ إرجاع البصر وانقلابه خاسئا حسيرا:

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِيْ خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِيْ خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ**

فَطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (١٠٩).

يقصد بإرجاع البصر: معاودة النظر بمزيد من التدقيق والتحديق فعلُ من يريد التأكد من شيء ما.

ومعنى الآيتين: أن الله خلق السموات السبع بما فيها من أفلاك ونجوم وكواكب في غاية الإتقان والدقة والتناسب. ومعنى التفاوت: الاختلاف والاضطراب والتناقض في الخلقة ولذلك فإن الله يأمر من يريد استشعار عظمة الله في الخلق أن يرجع البصر المرة بعد المرة كي يتأمل فيها (ويعاين ما أخبر به تعالى من تناسبها واستقامتها واستجماعها ما ينبغي لها) (١١٠) ثم يأمره ثانية بأن يرجع البصر كرتين (١١١) إذا لم يقنع بالرجعة الأولى كي يعاود، ويعاود متصفحا ومتتبعا يتلمس عيبا وخللا فإنه إن فعل ذلك لم يرجع عليه بصره بما التمسه من رؤية الخلل وإدراك العيب، بل سينقلب عليه بصره بالخسوء والحسور، أي: بالبعد عن إصابة الملتمس كأنه يطرد عن ذلك طرد الصغار والقماءة وبالإعياء والكلال لطول الاجالة والترديد (١١٢).

وفي الآيتين من اللمحات البلاغية ما يحتاج إلى كشف النقاب حيث يظهر جمال النظم القرآني فإن في قوله تعالى: **(يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ)** وضع للظاهر موضع المضمر وذلك للتنبية على أن الذي يرجع خاسئا حسيرا غير مدرك الفطور: هو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن فإذا لم يدرك شيء دل على أنه لا شيء ومثل ذلك

نجده في قوله تعالى: ﴿... **مَا تَرَىٰ فِيْ خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ**﴾ فأصله: ما ترى في خلقهن من تفاوت. ولكنه ذكرهن منسوبات لخلق الرحمن تنبيها على السبب الذي ربأ بهنّ على الفطور والتفاوت[١١٣].

إن حركة إرجاع البصر ومعاودة النظر الكرة تلو الكرة تجسّم لنا صورة للباحث عن شيء مّا وهو مشدود البصر يفتش عن الخفايا ... والتعبير بـ (**يَنْقَلِبْ**) وإتباعه ذلك بوصفه البصر بالخسوء والحسرة يدل على التسليم والإقرار بأنه ما في خلق الرحمن من تفاوت.

١٨ ـ ارتداد الطرف:

ورد التعبير بارتداد الطرف في القرآن في قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ حين أتى الرجل الصالح بعرشها بين يديه في سرعة فائقة...قال تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِيْ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**...﴾[١١٤] وقد ذكر الزمخشري أن هذا مَثَلٌ لاستقصار مدة المجيء، كما تقول لصاحبك: افعل كذا في لحظة وفي ردة طرف والتفت ترني وما أشبه ذلك تريد السرعة[١١٥].

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الكفار في يوم القيامة تظل أعينهم مفتوحة لا تطرف ولا يرتد إليها طرفها في قوله تعالى ﴿**مُهْطِعِيْنَ**

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[١١٦]
وذلك في تصوير أهوال يوم القيامة ومدى خوفهم منها.

وبهذا نكون قد أتينا على أحوال العين وكل ما يتصل بها وما تشير إليه في حركاتها وسكناتها وبيّنا المغزي البلاغي لكل هيئة وأثر تلك البلاغة الراقية في نفوس المتلقين ونسأل الله أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم.

هوامش

(١) سورة المائدة:الآية: ٨٣

(٢) سورة التوبة:الآية: ١٢٧

(٣) انظر : **فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات**: ١٣٤

(٤) سورة النجم:الآية: ١٧

(٥) سورة النمل:الآية: ٤٠

(٦) سورة الشورى : الآية: ٤٥

(٧) سورة التوبة : الآية: ١٢٧

(٨) للرئيس الأمريكي نيكسون عبارة مشهورة قالها حينما زار مصر في السبعينات بعد حرب رمضان وقد احتشد لاستقباله في مصر جمع غفير فقال : (تستطيع أن تحشد الألوف لاستقبال شخص ما، ولكنك لن تستطيع أن ترسم البسمة على شفاههم ولا أن تطبع وميض السعادة في عيونهم).

(٩) **البيان والتبيين** للجاحظ: ٤٣/١ ــ وانظر كذلك : **ديوان عمر بن أبي ربيعة**: ١٨٠ تحقيق : محي الدين عبد الحميد.

(١٠) **الشوقيات** ــ لأحمد شوقي ١٦٣/٢ ط دار اليوسف ، بيروت ١٩٨٧م.

(١١) **الإشارات الجسمية** : ٧١ وما بعدها.

(١٢) **العقد الفريد** لابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد) ١٦١/٢ تحقيق أحمد أمين: لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ١٩٥٢م، وانظر **الإشارات الجسمية**: ١٦٨.

(١٣) **فقه اللغة وسر العربية** - الثعالبي (أبو منظور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل): ١٢٣- تحقيق: مصطفى السقا: الحلبي ، مصر ، ١٩٧٢م.

(١٤) **السياسة في علم الفراسة**: الأنصاري: أبو طالب شمس الدين بن محمد ـــ ٣٩ ط : القاهرة ـــ ١٩١٤م. وانظر كذلك : **الإشارات الجسمية** : ٧٣.

(١٥) **الزهرة** : أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني ١٤٨/١ وما بعدها تحقيق: إبراهيم السامرائي:ط: عمان ١٩٧٥م، وانظر كذلك:**الإشارات الجسمية**: ٧٦

(١٦) **السابق**: ١٤٨/١ وما بعدها.

(١٧) **طوق الحمامة في الألفة والأُلّاف** لابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن حزم: ٣١ وما بعدها تحقيق: حسن كامل الصيرفي - المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

(١٨) **الامتاع والمؤانسة** : أبو حيان التوحيدي ١٦٦/٢ وما بعدها. تحقيق أحمد أمين وأحمد الزيني ط ٣ ـــ لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٥٣م وانظر كذلك : **الإشارات الجسمية**: ٧٩.

(١٩) سورة الأحزاب : الآية:١٩ .

(٢٠) **البحر المحيط** : ٢٢٠/٧.

(٢١) عبّر القرآن الكريم عن المعركة بقوله﴿ **فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ**﴾ والخوف مسبب عن المعركة على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته السببية. وفي التعبير ﴿**جَآءَ الْخَوْفُ**﴾ استعارة مكنية.

(٢٢) **البحر المحيط** : ٢٢٠/٧ .

(٢٣) **القاموس المحيط** : زوغ.

(٢٤) سورة الأحزاب: الآية: ٩ــ ١٠.

(٢٥) **المفردات في غريب القرآن:** الراغب الأصفهاني: ٢١٧، تحقيق محمد سيد كيلاني.

(٢٦) **الكشاف** : ٥٢٦/٣.

(٢٧) **البحر المحيط** : ١٦٠/٧.

(٢٨) **لغة الجسد** : ٩٤.

(٢٩) سورة إبراهيم :الآية: ٤٢ــ ٤٣.

(٣٠) **الكشاف**: ٥٦٣/٢.

(٣١) سورة الأنبياء :الآية: ٩٧.

(٣٢) **الكشاف** : ١٣٥/٣

(٣٣) **في ظلال القرآن** : ٢٣٩٨/٤.

(٣٤) سورة القيامة :الآية: ٦ــ١٠ .

(٣٥) **الكشاف** : ٦٦٠/٤.

(٣٦) **فقه اللغة** : ١٢٣.

(٣٧) سورة طـــــــه:الآية: ٤٠.

(٣٨) سورة القصص :الآية: ١٣.

(٣٩) سورة القصص: الآية: ١٠.

(٤٠) سورة القصص :الآية: ٩.

(٤١) سورة مريم :الآية: ٢٤ ــ ٢٦.

(٤٢) سورة الفرقان : الآية: ٧٤.

(٤٣) **الكشاف** : ٣/٢٩٦.

(٤٤) سورة المائدة:الآية : ٨٣.

(٤٥) انظر **أسباب النـــزول** للسيوطي: هامش على **تفسير بيان القرآن الكريم**.

(٤٦) **البحر المحيط** : ٤/٥.

٤٧) سورة المائدة :الآية: ٨٤.

(٤٨) سورة التوبة :الآية: ٩٢.

(٤٩) سورة غافر:الآية: ١٩.

(٥٠) **البيان و التبـــيـــين** : ١/٧٩

(٥١) **القاموس المحيط** : غشى

(٥٢) سورة البقرة :الآية: ٦ــــ ٧.

(٥٣) **الكشاف**: ١/٤٨.

(٥٤) السابق: ٤٩.

(٥٥) سورة الجاثية:الآية: ٢٣.

(٥٦) سورة يٰسٓ :الآية: ٨ــ ١٠.

(٥٧) **الكشاف** : ٤/٥.

(٥٨) انظر: **أسرار البلاغة** ١/٢٢٥ تحقيق خفاجي ط ــ ٣ مكتبة القاهرة مصـــــر ١٩٧٥م.

(٥٩) سورة يٰسٓ :الآية : ١١.

(٦٠) سورة ق :الآية: ٢١ــ ٢٢.

(٦١) سورة الأنفال :الآية: ١١.

(٦٢) سورة آل عمران :الآية: ١٥٤.

(٦٣) **القاموس المحيط** : نعس

(٦٤) **البحر المحيط** : ٤/ ٤٦٧

(٦٥) (أمنة)تعرب في سورة الأنفال: مفعولا لأجله، ولكنها في. سورة آل عمـــران مفعول به و(نعاسا) بدل منه.

(٦٦) **البحر المحيط**: ٨٥/.

(٦٧) سورة محمد:الآية: ٢٠.

(٦٨) سورة يس:الآية: ٦٦.

(٦٩) سورة القمر:الاية: ٣٧.

(٧٠) **الكشاف** : ٤/٢٤، ٤/٤٣٩.

(٧١) **الكشاف**: ٤/ ٢٥.

(٧٢) سورة يَسٓ :الآية: ٦٧.

(٧٣) سورة يَسٓ:الآية: ٦٥.

(٧٤) **الكشاف** : ٤/٤٣٩

(٧٥) سورة الأعراف :الآية ١١٦.

(٧٦) سورة الأعراف :الآية ١٢٠ ــ ١٢٢.

(٧٧) **المفردات في غريب القرآن**. الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحســـن بـــن محمد) مادة: غمز ــ تحقيق محمد سيد كيلاني . نشـــر.: كراتشـــي ـــ باكستان.

(٧٨) **القاموس المحيط** : لمز

(٧٩) **تفسير بيان القرآن الكريم** : محمد الحمصى ، سورة المطففين.

(٨٠) المرجعان السابقان.

(٨١) سورة المطففين :الآية: ٢٩ــــ ٣٠.

(٨٢) في عام ١٩٥٢م ــ استطاع عالم الأنثروبولوحيا الأمريكي (بيردوسل) في كتابه(**مدخل إلى علم الكينات أو الحركة الجسمية**)- استطاع أن يصنع أبجدية حركية بالرسم ومنها أن الغمز بإحدى العينين (شكل بيضاوي على يساره شرطه هكذا ــ) وهو يعتقد أن الحركات الجسمية تعد نظاما قائما بذاته مثلها في ذلك مثل اللغة، فكان من الضروري أن توضع لها أبجدية ذات رموز خاصة بها انظر : **دراسات في علم اللغة** / ١٧٠ــــ ١٧١.

(٨٣) انظر **الكشاف** : ٤/٢٩٣ ــ ٢٩٤.

(٨٤) السابق : ٤/٧٩٥.

(٨٥) **المفردات في غريب القرآن** مادة ٣(زري)

(٨٦) سورة هود :الآية: ٣١.

(٨٧) **القاموس المحيط** : زلق

(٨٨) **المفردات في غريب القرآن** (زلق)

(٨٩) سورة القلم:الآية: ٥١.

(٩٠) **الكشاف**: ٤/٥٩٧ **والبحر المحيط**: ٧ / ٣١٧.

(٩١) **أساس البلاغة** : زلق

(٩٢) سورة القلم :الآية: ٤٨.

(٩٣) سورة القمر:الآية: ٧.

(٩٤) سورة المعارج :الآية: ٤٣ - ٤٤.

(٩٥) سورة القلم :الآية: ٤٢ - ٤٣.

(٩٦) **البحر المحيط** : ٨/ ١٧٦.

(٩٧) سورة الشورى : الآية: ٤٥.

(٩٨) **الكشاف** : ٤/ ٢٣١.

(٩٩) سورة النور :الآية: ٣٠ - ٣١.

(١٠٠) **ديوان عنترة**: ص ٨٦ - كرم البستاني - دار صادر- بيروت (بدون تاريخ).

(١٠١) **شرح ديوان جرير**: إيليا حاوي ص ٩٧ ط ١ - دارالكتاب اللبناني بـــيروت ١٩٨٢م.

(١٠٢) سورة الحجر :الآية: ٨٨.

(١٠٣) سورة طه:الآية: ١٣١.

(١٠٤) **الكشاف** : ٢/ ٥٨٨.

(١٠٥) سورة القمر:الآية:٥٠.

(١٠٦) سورة النحل : الآية: ٧٧.

(١٠٧) **البحر المحيط** : ٨/ ١٨٣.

(١٠٨) السابق: ٥/ ٥٢١.

(١٠٩) سورة الملك: الآية: ٣- ٤ ومعنى(خاسئا): ذليلا صاغرا - ومعنى (حسير) : كليل من حسر بعيره حسورا - أي : كلّ وانقطع فهو حسير.

(١١٠) **تفسير البيضاوي** ٥١٨/٤ ، دار إحياء التراث العربي - ديار بكر - تركيا.

(١١١) كرتين هنا لا يقصد بها التثنية بل التكرير والتكثير.

(١١٢) **راجع الكشاف** : ٤/ ٥٧٦.

(١١٣) السابق ٤/٥٧٦ (**حاشية الاسكندري**).

(١١٤) سورة النمل :الآية: ٤٠.

(١١٥) **الكشاف** : ٣/٣٨٦.

(١١٦) سورة إبراهيم :الآية: ٤٣ وانظر (شخوص البصر) في هذا البحث.

مراجع البحث

أولا : القرآن الكريم

ثانيا :

(١) **أسباب النزول للسيوطي**. هامش على تفسير **بيان القرآن الكريم**. إعداد:محمد الحمصي. ط: دار الرشيد دمشق.

(٢) **أسرار البلاغة** للجرجاني(عبد القاهر) تحقيق ـ:محمد عبد المنعم خفاجي ط ٣ ـ مكتبة القاهرة ، مصر ١٩٧٥م.

(٣) **أساس البلاغة**: الزمخشري(جار الله محمود بن عمر) ت ـ عبدالرحيم محمود، بشاور، باكستان.

(٤) **الإشارات الجسمية**: دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل د. كريم زكي حسام الدين ط : الأنجلو المصرية ـ مصر ١٩٩١م.

(٥) **الإمتاع والمؤانسة** : التوحيدي (أبو حيان) ت . أحمد أمين وأحمد الزيني ط، ٣ ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ١٩٥٣م.

(٦) **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، القاضي البيضاوي ــ هامش على حاشية محيي الدين شيخ زاده ــ المكتبة الإسلامية ــ ديار بكر ــ تركيا.

(٧) **البحر المحيط** : أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف) ط. دارالفكر، بيروت.

(٨) **البيان والتبيين** : الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر) ت ، فوزي العطوي ، الخاتجي / مصر / ١٩٦٩م.

(٩) **دراسات في علم اللغة** : د . فاطمة محجوب . دار النهضة العربية ، مصر ، ١٩٧٦م.

(١٠) **شرح ديوان جرير**:إيليا حاوي ط ١ -دار الكتاب اللبناني ــ بيروت ١٩٨٢م.

(١١) **ديوان عمر بن أبي ربيعة** ــ تحقيق محي الدين عبد الحميد، مصر(بدون تاريخ).

(١٢) **ديوان عنترة ــ تحقيق** : كرم البستاني ــ دار صادر ــــ بيروت (بدون تاريخ).

(١٣) **الزهرة** ــ الأصفهاني(أبو بكر محمد بن داود) ت ــ إبراهيم السامرائي ط / عمان ١٩٧٥م.

(١٤) **السياسة في علم الفراسة** ، الأنصاري (أبو طالب شمس الدين بن محمد) ط ، القاهرة ١٩١٤م.

(١٥) **الشوقيات** ــ أحمد شوقي، دار اليوسف، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.

(١٦) **طوق الحمـــامة في الألفة والألاف**، ابن حزم(أبو محمد علي بن محمد)- حسين كامل الصيرفي /المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

(١٧) **العقد الفريـــد**، ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد)ت . أحمد أمين - لجنة التأليف والترجمة والنشر ـــ القاهرة ـــ ١٩٥٢م.

(١٨) **فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات** ـــ نور الدين بـــن نعمـــة اللـــه الحسيني الموسوي تحقيق وشرح : محمد رضوان الداية ـــ مكتـــب نشـــر الثقافة الإسلامية ـــ طهران ١٣٩٧هـــ.

(١٩) **فقه اللغة وسر العربية ـــ** (الثعالبي) : أبو منصور ـــ عبدالملك بن محمد بن إسماعيل ـــ مصطفى السقا ـــ الحلبي ـــ مصر ١٩٧٢م.

(٢٠) **في ظلال القرآن** -سيد قطب-دارالشروق- مصر، ١٩٨٥م.

(٢١) **القـــاموس المحيط** ـــ الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقـــوب)، دار إحياء التراث العربي ـــ بيروت ـــ لبنان.

(٢٢) **الكشاف عن حقائق غوامض التـــنـــزيل وعيون الأقاويل في وجـــــوه التأويل** الزمخشري - دارالكتاب العربي - بيروت.

(٢٣) **لغة الجسد** - (آلن بيز) تعريب، سمير شيخاني - دار الآفـــاق - بـــيروت ١٩٧٧م.

(٢٤) **المفردات في غريب القرآن** - الراغب الأصفهانـــي - ت محمـــد ســـيد كيلاني.

(٢٥) **الانتصاف** ـــ الإمام أحمد بن المنير الاسكندري ـــ حاشية على **الكشاف**.